

سورة الحجرات

هي مدنية ، عدة آياتها ثمان عشرة ، نزلت بعد سورة المجادلة .
ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

- (١) ذكر في هذه قتال البغاة ، وفي تلك قتال الكفار .
- (٢) إن السابقة ختمت بالذين آمنوا ، وافتتحت هذه بهم .
- (٣) إن كلا منهما تضمن تشريفا وتكريما للرسول صلى الله عليه وسلم ولا سيما في مطلعيهما .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ
اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ
النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ
وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ
الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَعْفَرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣)

شرح المفردات

لا تقدموا : أى لا تتقدموا ، من قولهم مقدمة الجيش لمن تقدم منهم ، قال
أبو عبيدة : العرب تقول : لا تقدم بين يدي الإمام وبين يدي الأب : أى لا تعجل
بالأمر دونه ، وقيل إن المراد لا تقولوا بخلاف الكتاب والسنة ، ورجح هذا ، لا ترفعوا
أصواتكم فوق صوت النبي : أى إذا كلمتموه ونطق ونطقتم فلا تبلغوا بأصواتكم وراء

الحد الذي يبلغه بصوته ، يعضون أصواتهم : أى يخفضونها ويلينونها ، امتحن الله قلوبهم : أى طهرها ونقاها كما يمتحن الصائغ الذهب بالإذابة والتنقية من كل غش .

المعنى الجملى

ذكرت سورة الفتح بعد سورة القتال لأن الأولى كالمقدمة والثانية كالنتيجة و ذكرت هذه بعد الفتح ، لأن الأمة إذا جاهدت ثم فتح عليها والنبي صلى الله عليه وسلم بينهم ، واستتب الأمر ، وجب أن توضع القواعد التي تكون بين النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وكيف يعاملونه ؟ والآداب التي يجب أن يكونوا عليها ، فهم قد وصفوا في الأمثال المضروبة في التوراة والإنجيل بالتراحم فيما بينهم والركوع والسجود والعظم والقوة — وهنا ذكر كيف يعاملون الرسول صلى الله عليه وسلم وكيف يعامل بعضهم بعضاً ؟ فطلب إليهم ألا يقطعوا أمراً دون أن يحكم الله ورسوله به ، ولا يعرفوا أصواتهم فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم ولا يجهروا له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض لما في ذلك من الاستخفاف الذي قد يؤدي إلى الكفر الحبط للأعمال .

الإيضاح

أدب الله المؤمنين إذا قابلوا الرسول بأدبين : أحدهما فعل ، وثانيهما قول ، وأشار إلى أولها بقوله :

(١) (يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم) أى يأيها المؤمنون لا تتجاولوا بقضاء أمر قبل أن يقضى الله ورسوله لكم فيه ، إذ ربما تقضون بغير قضائهما ، وراقبوا الله أن تقولوا ما لم يأذن لكم الله ورسوله به ، إن الله سميع لما تقولون ، عليم بما تريدون بقولكم إذا قلتم ، لا يخفى عليه شيء من ضمائر صدوركم .

وينحو هذا أجاز معاذ بن جبل رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه إلى اليمن قال له « بم تحكم ؟ قال بكتاب الله تعالى ، قال صلى الله عليه وسلم فإن لم تجد ، قال بسنة رسوله ، قال صلى الله عليه وسلم فإن لم تجد ، قال أجتهد رأيي ،

فضرب في صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسوله لما يرضى رسوله «
رواه أحمد وأبو داود والترمذى . صحيفه بجمع طرحة : نظر المسلمه كصفه لله سبحانه
فتراه قد أخرج رأيه واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة ، ولو قدمه لكان من
المتقدمين بين يدى الله ورسوله .

والخلاصة — إنه طلب إليهم أن ينقادوا لأوامر الله ونواهيه ، ولا يعجلوا بقول
أو فعل قبل أن يقول الرسول أو أن يفعل ، فلا يذبحوا يوم عيد الأنحى قبل أن يذبح ،
ولا يصوم أحد يوم الشك وقد نهى عنه .
وأشار إلى ثانيهما بقوله :

(٢) (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) أى إذا نطق
ونطقتم فلا ترفعوا أصواتكم فوق صوته ، ولا تبلغوا بها وراء الحد الذى يبلغه ، لأن
ذلك يدل على قلة الاحشام ، وترك الاحترام .

روى البخارى بسنده عن ابن أبى مليكة « أن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه
أخبره أنه قدم ركب من تميم على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر رضى الله عنه :
أمر القعقاع بن معبد ، وقال عمر : بل أمر الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر رضى الله
عنه : ما أردت إلا خلافى ، فقال عمر رضى الله عنه : ما أردت خلافتك ، فماريا حتى
ارتفعت أصواتهما فنزلت : (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم) الآية . فكان
أبو بكر بعدها لا يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا كأخى السرار ، وما حدث
عمر النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فسمع كلامه حتى يستغفمه مما يخفض صوته .»

(ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون)
أى وإذا كلمتموه وهو صامت فإياكم أن تبلغوا به الجهر الذى يدور بينكم ، أو أن
تقولوا يا محمد ، يا أحمد ، بل خاطبوه بالنبوة مع الإجلال والتعظيم ، خشية أن يؤدي
ذلك إلى الاستخفاف بالمخاطب فتكفروا من حيث لا تشعرون .

ولما نزلت هذه الآية تخلف ثابت بن قيس عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا إليه صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله : لقد أنزلت هذه الآية وإني رجل جهير الصوت ، فأخاف أن يكون علي قد حبط ، فقال عليه الصلاة والسلام : لست هناك ، إنك تعيش بخير وتموت بخير ، وإنك في أهل الجنة ، فقال : رضيت ببشرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا أرفع صوتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدا ، فأنزل الله :

(إن الذين يعضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) أى إن الذين ضرب الله قلوبهم بأنواع الخن والتكاليف الشاقة حتى طهرت وصفت بما كابدت من الصبر على المشاق ، لهم مغفرة لذنوبهم ، وأجر عظيم لغضهم أصواتهم ولسائر طاعاتهم .

روى أحمد فى الزهد عن مجاهد قال : كتبت إلى عمر ، يا أمير المؤمنين رجل لا يشتهى المعصية ولا يعمل بها أفضل ، أم رجل يشتهى المعصية ولا يعمل بها ؟ فكتب عمر رضى الله عنه ، إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) .

إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)
وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ (٥)

شرح المفردات

من وراء الحجرات : أى من خارجها سواء كان من خلفها أو من قدامها ، إذ أنها من المواراة وهى الاستتار ، فما استتر عنك فهو وراء خلفا كان أو قداما ، فإذا رأيته

لا يكون ورامك . ويرى بعض أهل اللغة أن وراء من الأضداد فتطلق تارة على ما أمامك ، وأخرى على ما خلفك ، والحجرات (بضم الجيم وفتحها وتسكينها) واحداً حجر : وهى القطعة من الأرض المحجورة ؛ أى المنوعة عن الدخول فيها بمحاطة ونحوه ، والمراد بها حجرات نسائه عليه الصلاة والسلام ، وكانت تسعة لكل منهن حجر من جريد النخل على أبوابها المسوح من شعر أسود ، وكانت غير مرتفعة يتناول سقفها باليد ، وقد أدخلت فى عهد الوليد بن عبد الملك بأمره فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى الناس لذلك .

وقال سعيد بن المسيب يومئذ : لوددت أنهم تركوها على حالها لينشأ ناس من أهل المدينة ويقدم القادم من أهل الآفاق فيرى ما اكتفى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته ، فيكون ذلك مما يزهّد الناس فى التفاخر والتكاثر فيها .

المعنى الجملى

ذم الله تبارك وتعالى الذين ينادون رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات وهو فى بيوت نسائه كما يفعل أجلاف الأعراب ، ثم أرشدهم إلى مافيه الخير والمصلحة لهم فى دينهم ودنياهم ، وهو أن ينتظروا حتى يخرج إليهم .

زوى ابن جرير بسنده عن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال : « اجتمع ناس من العرب فقالوا انطلقوا بنا إلى هذا الرجل ، فإن يك نبيا فنحن أسعد الناس به ، وإن يك ملكا نعش بجناحه ، قال : فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما قالوا ، فجاءوا إلى حجره النبى صلى الله عليه وسلم فجعلوا ينادونه وهو فى حجرته يا محمد يا محمد ، فأنزّل الله تعالى : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) قال : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذنى فدها وجعل يقول : لقد صدق الله تعالى قولك يا زيد . لقد صدق الله قولك يا زيد . »

وقال قتادة : نزلت في وفد تميم وكانوا سبعين رجلا منهم الزُّبَيْرُ قَانُ بن بَدْرٍ وعُطَارِدُ بن حَاجِبٍ وقيس بن عاصم وعمرو بن الأَهمِّ ، جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم للمفاخرة ، فنادوا على الباب : اخرج إلينا يا محمد ، فإن مدحنا لزين ، وإن ذمنا لشين ، فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : إنما ذلكم الله الذي مدحه زين وذمه شين ، فقالوا : نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك ، فقال رسول الله : ما بالشعر بعثت ، ولا بالفاخرة أمرت ، ولكن هاتوا قمام شاب منهم فذكر فضله وفضل قومه ، فقال صلى الله عليه وسلم للثابت بن قيس ابن شماس وكان خطيب النبي صلى الله عليه وسلم ، قم فأجبه فأجابه ، وقام الزُّبَيْرُ قَانُ ابن بَدْرٍ فقال :

نحن الكرامُ فلا حتى يعادلنا
منا الملوك وفيما تُنصَبُ البيعُ
إلى أن قال :

فلا ترانا إلى حتى يفاخرهم
فمن يفاخرنا في ذلك نعرفه
فيرجع القوم والأخبارُ تُسمعُ

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت أجبه فقال :

إن الذوائب من فخر وإخوتهم
قد بينوا سنة للناس تتبعُ
يرضى بها كل من كانت سريره
تقوى الإله وكل الخير يصطبعُ
قومٌ إذا حاربوا ضرّوا عدوهم
أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجيةٌ تلك منهم غير محدثة
إن الخلائق فاعلم شرّها البِدَعُ

في قصيدة طويلة ، فلما فرغ حسان من قوله ، قال الأقرع بن حابس : وأبي إن هذا الرجل لمؤتني له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا ، ثم دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أشهد

أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما يضرك ما كان من قبل هذا ، ثم جوزهم رسول الله فأحسن جوائزهم .

الإيضاح

(إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) أى إن الذين ينادونك من وراء حجرات نساءك أكثرهم جهال بما يجب لك من الإجلال والتعظيم . والمراد بالحجرات موضع خلوته ومقيله مع بعض نساته .

(ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم) أى ولو أن هؤلاء الذين ينادونك من وراء الحجرات صبروا ولم ينادوك حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم عند الله ، لأنه قد أمرهم بتوقيرك وتعظيمك .

(والله غفور رحيم) أى والله ذو عفو عن ناداك من وراء الحجاب إن هو تاب من معصيته بتدائك كذلك ، وراجع أمر الله فى ذلك وفى غيره ، رحيم به أن يعاقبه على ذنبه ذلك من بعد توبته منه .

والخلاصة — إن الله سبحانه يحسن الصياح برسول الله صلى الله عليه وسلم فى حال خلوته من وراء الجدر كما يصاح بأهون الناس قدراً ، لينبه إلى فظاعة ما جسروا عليه ، لأن من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول كان صنيع مثل هؤلاء معه من المنكر الذى بلغ من التفاحش مبلغاً لا يقدر قدره .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِئُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُم

الْإِيمَانَ وَزَيْنَتَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَتْ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ
أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨).

شرح المفردات

الفاسق: هو الخارج عن حدود الدين من قولهم: فسق الرطب إذا خرج من قشره، والتبين: طلب البيان، والنبأ: الخبر، قال الراغب: ولا يقال للخبر نبأ إلا إذا كان ذا فائدة عظيمة به يحصل علم أو غلبة ظن، بجهالة: أي جاهلين حالهم فتصبحوا: أي فتصيروا، نادمين: أي مغتمين غما لازما متمدين أنه لم يقع؛ فإن الندم الغم على وقوع شيء مع تمنى عدم وقوعه، كَعَنْتُمْ: أي لوقعتم في الجهد والهلاك، والكفر: تغطية نعم الله تعالى بالجحود لها، الفسوق: الخروج عن الحد كما علمت، والعصيان: عدم الانقياد، من قولهم: عصت النواة: أي صلبت واشتدت، والرشاد: إصابة الحق واتباع الطريق السوي.

المعنى الجملي

هذا أدب أدب الله به عبادة المؤمنين — أنه إذا جاءهم الفاسق المجاهر بترك شعائر الدين بأيّ خير، لا يصدقونه بأذى ذي بدء حتى يتثبتوا، ويتطلبوا انكشاف الحقيقة ولا يعتمدوا على قوله، فإن من لا يبالي بالفسق لا يبالي بالكذب الذي هو من فضيلته — كراهة أن يُصيَبوا بأذى قوما هم جاهلون حالهم، فتندموا على ما فرط منكم وتمنوا أنه لو لم يكن قد وقع.

روى عن ابن عباس «أن الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وكان قد بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني المصطلق ليأخذ الصدقات، فلما أتاهم الخبير فرحوا به وخرجوا يستقبلونه، فلما حدث بذلك الوليد حسب أنهم جاءوا لقتاله،

فرجع قبل أن يلركوه وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم منعوا الزكاة ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا ، وبينما هو يتحدث نفسه أن يغزوهم إذ أتاه الوفد فقالوا يارسول الله : إنا حُدُّتْنَا أن رسولك رجح من نصف الطريق ، وإنا خشينا أنه إنما رده كتاب جاء منك تغضب غضبته علينا ، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله ، فأنزل الله عذرهم في الكتاب فقال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ) الآية . أخرجه أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه ، وقال ابن كثير : وهذا من أحسن ما روى في سبب نزول الآية .

وقال الرازي : هذه الرواية ضعيفة لأن إطلاق لفظ الفاسق على الوليد بعيد ، لأنه توهم وظن فأخطأ ، والخطي لا يسمى فاسقا ، كيف والفاسق في أكثر المواضع يراد به من خرج من رِبَّةِ الإيمان لقوله : « إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » اهـ .

ثم بين أن صحبه كانوا يريدون أن يتبع رأيهم في الحوادث ، ولو فعل ذلك لوقعوا في العنت والهلاك ، ولكن الله حبب إلى بعضهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، وهؤلاء أهل الرشاد والسالكون الطريق السوي .

الإيضاح

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) أى يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِنْ جَاءَكُمْ الْفَاسِقُ بِأَيِّ نَبَأٍ فَتَوَقَّفُوا فِيهِ وَتَطَلَّبُوا بَيَانَ الْأَمْرِ وَانْكَشَافَ الْحَقِيقَةِ ، وَلَا تَعْتَمِدُوا عَلَى قَوْلِ الْفَاسِقِ ، فَإِنَّ مِنَ الْإِبَالِيِّ بِالْفَسْقِ فَهُوَ أَجْدَرُ الْإِبَالِيِّ بِالْكَذْبِ وَلَا يَتَحَامَاهُ — خَشْيَةٌ إِصَابَتِكُمْ بِالْأَذَى قَوْمًا أَتَمَّ جَاهِلُونَ حَالَهُمْ ، فَتَنْدَمُوا عَلَى مَا فَرَطَ مِنْكُمْ وَتَتَمَنَّوْنَ أَنْ لَوْلَمْ تَكُونُوا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ .

ثم وعظهم سبحانه بعضه هم أحرى الناس باتباعها فقال :

(واعلموا أن فيكم رسول الله) أى واعلموا أن بين أظهركم رسول الله فمظموه

ووقروه وتآدبوا معه واقادوا لأمره ، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم ، ورأيه فيكم أتمّ من رأيكم لأنفسكم كما قال تعالى: ﴿التَّيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ . ثم بين أن رأيه أنفع لهم وأجدر بالرعاية فقال :

(لويطيعكم في كثير من الأمر لعنتم) أى لو سارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر ، وأجاب ما أشرتم به عليه من الآراء لوقفتم في الجهد والإتم ، ولكنه لا يطيعكم في غالب ما تريدون قبل وضوح وجهه له ، ولا يسارع إلى العمل بما يبلغه قبل النظر فيه .

عن أبي سعيد الخدري أنه قرأ هذه الآية وقال : هذا نبيكم يوحى إليه وخيار أئمتكم لو أطاعهم في كثير من الأمر لعنتوا ، فكيف بكم اليوم ، أخرجه الترمذى . ثم استدرك على ما سلف لبيان عذر بعضهم فقال :

(ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان) أى ولكنّ جماعتم براء مما أتمّ عليه من تصديق الكاذب وتزيين الإيقاع بالبرىء وإرادة أن يتبع الحق أهواءهم ، لأن الله تعالى جعل الإيمان أحب الأشياء إليهم ، فلا يقع منهم إلا ما يوافقهم ويقتضيه من الأمور الصالحة وترك التسرع في الأخبار ، وكره إليهم هذه الأمور الثلاثة : الكفر والفسوق والعصيان .

والخلاصة — إن الإيمان الكامل إقرار باللسان ، وتصديق بالجنان وعمل بالأركان ، فكراهة الكفر في مقابلة محبة الإيمان وتزيينه في القلوب هو التصديق بالجنان ، والفسوق وهو الكذب في مقابلة الإقرار باللسان ، والعصيان في مقابلة العمل بالأركان .

(أولئك هم الراشدون) أى هؤلاء الذين هذه صفاتهم هم السالكون طريق السعادة ولم يميلوا عن الاستقامة . (فضلا من الله ونعمة) أى هذا العطاء الذى منحكموه تفضل منه عليكم وإنعام من لدنه .

(والله عليم حكيم) أى والله عليم بمن يستحق الهداية ، ومن يستحق الغواية ، حكيم فى تدبير شئون خلقه وصرّهم فيما شاء من قضائه .

والخلاصة — إن رسول الله بين أظهركم وهو أعلم بمصالحكم ، لو أطاعكم فى جميع ما تمتارونه لأدى ذلك إلى عنتكم ووقوعكم فى مهاوى الردى ، ولكن بعضاً منكم حبب إليهم الإيمان فى قلوبهم ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، وأولئك هم الذين أصابوا الحق وسلكوا سبيل الرشاد .

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَبْغِيَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)

شرح المفردات

الطائفة : الجماعة أقل من الفرقة بدليل قوله : « فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ » فأصلحوا بينهما : أى فكفوها عن القتال بال نصيحة أو التهديد والزجر والتعذيب ، بغت : أى تعدت وجارت ، تفيء : أى ترجع ، وأمر الله : هو الصلح ، لأنه مأمور به فى قوله : « وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ » فأصلحوا بينهما بالعدل : أى بإزالة آثار القتال بضمان المتلفات بحيث يكون الحكم عادلاً حتى لا يودى النزاع إلى الاقتتال مرة أخرى ، وأقسطوا : أى واعدلوا فى كل شأن من شئونكم وأصل الإقساط : إزالة القسط (بالفتح) وهو الجور ، والقاسط : الجائر كما قال : « وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا » والإخوة فى النسب ، والإخوان فى الصداقة ، واحدهم

أخ، وقد جعلت الأخوة في الدين كالأخوة في النسب وكأن الإسلام أب لهم
قال قائلهم :

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقبائس أو تميم

المعنى الجملى

بعد أن حذر سبحانه المؤمنين من النبا الصادر من الفاسق — بين هنا بار بما
ترتب على خبره من النزاع بين فئتين وقد يشول الأمر إلى الاقتتال ، فطلب من
المؤمنين أن يزيلوا ما نتج من كلامه ، وأن يصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداها على
الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى ترجع إلى الصلح بدفعها عن الظلم مباشرة إن أمكن ،
أو باستعداد الحاكم عليها ، وإن كان الباغى هو الحاكم فالواجب على المسلمين دفعه
بالنصيحة فما فوقها بشرط ألا تثير فتنة أشد من الأولى .

ثم تم الإرشاد وأبان أن الصلح كما يلزم بين الفئتين — يجب بين الأخوين ،
ثم أمرهم بتقوى الله ووجوب اتباع حكمه وعدم الإهمال فيه رجاء أن يرحمهم إذا هم
أطاعوه ولم يخالفوا أمره .

روى قتادة أن الآية نزلت في رجلين من الأنصار كان بينهما مداراة في حق ،
فقال أحدهما للآخر : لآخذنَّ حتى منك عنوة لكثرة عشيرته ، ودعاه الآخر ليحاكمه
إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأبى أن يتبعه ، فلم يزل الأمر بينهما حتى تدافعا وتناول
بعضهم بعضاً بالأيدى والنعال ، ولم يكن قتال بالسيوف .

الإيضاح

(وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) أى وإن اقتتل طائفتان
من أهل الإيمان ، فأصلحوا أيها المؤمنون بينهما بالدعاء إلى حكم الله والرضا بما فيه ،
سواء كان لهما أو عليهما ، وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل .

(فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تنفيء إلى أمر الله) أي فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم الله وتمدت ماجمله الله عدلا بين خلقه ، وأجابت الأخرى فقاتلوا التي تعتدى وتأبى الإجابة إلى حكمه حتى ترجع إليه وتخضع طائفة له .

(فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل) أي فإن رجعت الباغية بعد قتالكم إياها إلى الرضا بحكم الله — فأصلحوا بينهما بالإيناف والعدل حتى لا يتجدد بينهما القتال في وقت آخر .

ثم أمرهم سبحانه بالعدل في كل أمورهم فقال :
(وأقسطوا إن الله يحب القسطين) أي واعدلوا في كل ماتأتون وما تذررون ، إن الله يحب العادلين في جميع أعمالهم ويجازيهم أحسن الجزاء .
وفي الصحيح عن أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، قلت يا رسول الله : هذا نصرته مظلوما ، فكيف أنصره ظالما ؟ قال : تمنعه من الظلم ، فذلك نصرك إياه » .

(إنما المؤمنون إخوة) أي إنهم منقسمون إلى أصل واحد وهو الإيمان الموجب للسعادة الأبدية ، وفي الحديث « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يعيبه ولا يأخذله ولا يتناول عليه في البنين فيستر عليه الريح إلا ياذنه ولا يؤذيه بقنار قدره إلا أن يغرف له عرفة ، ولا يشتري لبنه الفاكهة فيخرجون بها إلى صبيان جاره ولا يطعمونهم منها ، ثم قال احفظوا ولا يحفظ منكم إلا قليل » وفي الصحيح أيضا :
« إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب ، قال الملك : آمين ولك بمثله » .

ولما كانت الأخوة داعية إلى الإصلاح ولا بد — تسبب عن ذلك قوله :

(فأصلحوا بين أخويكم) في الدين كما تصلحون بين أخويكم في النسب :

(واتقوا الله) في كل ماتأتون وما تذرّون ، ومن ذلك ما أمرتم به من إصلاح ذات البين .

(لعلكم ترحمون) أي رجاء أن يرحمكم ربكم ويصفح عن سالف إجرامكم إذا أنتم أطيعتموه واتبعتم أمره ونهيه .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرَكُم مِّن قَوْمٍ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١)

شرح المفردات

السخرية : الاحتقار وذكر العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، يقال سخر به وسخر منه ، وضحك به ومنه ، وهزئ به ومنه ؛ والاسم السخرية والسخرى (بالضم والكسر) وقد تكون بالحاكاة بالقول أو بالفعل أو بالإشارة أو بالضحك على كلام المسخور منه إذا غلط فيه ، أو على صنعته ، أو على قبح صورته ، والقوم : شاع إطلاقه على الرجال دون النساء كما في الآية ، وقال زهير .

وما أدرى وسوف إخال أدرى أقوم آل حِصْن أم نساء

ولا تلمزوا أنفسكم : أي لا يعب بعضكم بعضاً بقول أو إشارة باليد أو العين أو نحوهما ، والمؤمنون كنفوس واحدة فتى عب المؤمن المؤمن فكأنما عب نفسه ، والتنازع : التعارض والتداعي بما يكرهه الشخص من الألقاب ، والاسم : الذكر والصيت ، من قولهم : طار اسمه بين الناس بالكرم أو اللؤم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن مع الله تعالى ومع النبي صلى الله عليه وسلم ومع من يخالفهما ويعصيهما وهو الفاسق ، بين ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن ، فذكر أنه لا ينبغى أن يسخر منه ولا أن يعيبه بالهمز واللمز ، ولا أن يلقبه باللقب الذى يتأذى منه ، فبئس العمل هذا ، ومن لم يقب بعد ارتكابه فقد أساء إلى نفسه وارتكب جرماً كبيراً .

روى أن الآية نزلت فى وفد تميم إذ كانوا يستهزئون بفقرائ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كعمار وصُهَيْب وبلال وخبَّاب وابن فُهَيْرة وسلمان الفارسى وسالم مولى أبي حذيفة فى آخرين غيرهم لما رأوا من رثانة حالهم .

وروى أنها نزلت فى صفية بنت حُيَّ بن أخطب رضى الله عنها: أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : « إن النساء يقنن لى : يا يهودية بنت يهوديين ، فقال لها : هلا قلت : أبى هارون ، وعمى موسى ، وزوجى محمد » .

الإيضاح

(يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم) أى لا يهزأ ناس من المؤمنين بآخرين : ثم ذكر العلة فى ذلك فقال :

(عسى أن يكونوا خيراً منهم) أى فقد يكون المسخور منهم خيراً عند الله من الساخرين كما جاء فى الأثر « فربَّ أشعث أغبر ذى طِمْرين لا يؤبه له ، لو أقسم على الله تعالى لأبره » .

فينبغى ألا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن تتقحمه عينه لرثانة حاله أو لكونه ذا عاهة فى بدنه أو لكونه غير لبق فى محادثته ، فلعله أخلص ضميراً وأتقى قلباً ممن هو على ضد صفته ، فيظلم نفسه بتحقيق من وقره الله تعالى .

« ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهن) أى ولا يسخر نساء من نساء عسى أن يكون المسخور منهن خيراً من الساخرات ، وأتى بالجمع فى الموضوعين ، من قبل أن الأغلب فى السخرية أن تكون فى مجامع الناس ، وكم من متلذذ بها ، وكم من متألم منها .

روى الترمذى عن عائشة قالت : حكيت للنبي صلى الله عليه وسلم رجلاً فقال : « ما يسرنى أنى حكيت رجلاً وأن لى كذا وكذا ، قالت فقلت يا رسول الله إن صفة امرأة وقالت ^(١) بيدها هكذا تعنى أنها قصيرة ، فقال : لقد مزجت بكلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته »

وروى مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » وفى هذا إيماء إلى أن المرء لا يقطع بمدح أحد أو عيبه كما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة فاعلم من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وصفا مذموماً لا تصح معه تلك الأعمال ، ولعل من رأينا منه تفريطاً أو معصية يعلم الله من قلبه وصفا محموداً يغفر له بسببه ، فالأعمال أمارات ظنية ، لا أدلة قطعية .

(ولا تلمزوا أنفسكم) أى ولا يعيب بعضكم بعضاً بقول أو إشارة على وجه الخفية . وفى قوله : « أنفسكم » تنبيه إلى أن العاقل لا يعيب نفسه ، فلا ينبغى أن يعيب غيره لأنه كنفسه ، ومن ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : « المؤمنون كجسد واحد إن اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » وقال عليه الصلاة والسلام : « يبصر أحدكم القذاة ^(٢) فى عين أخيه ويدع الجذع فى عينه » .

(١) تطلق العرب القول على جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان توسعاً فى الاستعمال .

(٢) ما يقع فى العين والماء والتراب من تراب أو تبن أو وسخ أو غير ذلك .

وقيل : من سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره . قال الشاعر :

لا تكشفن من مساوى الناس ماستروا فيهتك الله سـترا عن مساويك
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا ولا تعب أحداً منهم بما فيك
(ولا تنازروا بالألقاب) أى لا يدع بعضكم بعضاً باللقب الذى يسوءه ويكرهه
كأن يقول لأخيه المسلم : يا فاسق ، يا منافق ، أو يقول لمن أسلم : يا يهودى ،
أو يا نصرانى :

قال قتادة وعكرمة عن أبى جبيرة بن الضحاك قال : فى بنى سلمة نزلت (ولا
تنازروا بالألقاب) قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وليس فىنا رجل إلا وله
اسمان أو ثلاثة ، فكان إذا دعا واحدا باسم من تلك الأسماء قالوا : يا رسول الله إنه
يكرهه فنزلت . أخرجه البخارى فى الأدب وأهل السنن وغيرهم .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : التنازير بالألقاب أن يكون الرجل
قد عمل السيئات ثم تاب وراجع الحق ، فنهى الله تعالى أن يعير بما سلف من عمله .
أما الألقاب التى تكسب حمداً أو مدحاً وتكون حقاً وصدقا فلا تكره كما قيل
لأبى بكر : عتيق ، ولعمر : الفاروق ، ولعثمان : ذو النورين ، ولعلى : أبو تراب ، ولخالد
سيف الله .

(بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان) أى بئس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا
بالفسوق بعد دخولهم فى الإيمان واشتغالهم به .
وفى هذا إيماء إلى استقباح الجمع بين الأمرين كما تقول بئس الصبوة بعد
الشيخوخة أى معها .

(ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) أى ومن لم يتب من نبره أخاه بما نهى الله
عن نبره من الألقاب أو لمزه إياه أو سخريته منه ، فأولئك هم الذين ظلموا أنفسهم
فأكسبوا عقاب الله بعصيانهم إياه .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢)

شرح المفردات

اجتنبوا: أى تباعدوا، وأصل اجتنبته: كنت منه على جانب، ثم شاع استعماله فى التباعد اللازم له، والإثم: الذنب، والتجسس: البحث عن العورات والمعائب والكشف عما ستره الناس، والغيبة: ذكر الإنسان بما يكره فى غيبته فقد روى مسلم وأبو داود والترمذى «أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: أتدرون ما الغيبة؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره، قيل: أفرأيت لو كان فى أخى ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته».

المعنى الجملى

أدب الله عباده المؤمنين بأداب إن تمسكوا بها كانت محلبة للمودة والوئام بينهم: منها ما تقدم قبل هذا، ومنها ما ذكره هنا، وذلك من الأمور العظام التى تزيد توثيق رباط المجتمع الإسلامى قوة:

(١) البعد عن سوء الظن بالناس وتخونهم فى كل ما يقولون وما يفعلون، لأن بعض ذلك قد يكون إنما محضا فليجتنب كثير منه، وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال: ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيرا، وأنت تجد لها فى الخير محملا.

(٢) البحث عن عورات الناس ومعايبهم.

(٣) عدم ذكر بعضهم بعضا بما يكرهون فى غيبتهم، وقد مثل الشارع المغتاب

بأكل لحم الميتة استفظاعا له.

قال قتادة : كما تسكره إن وجدت جيفة ممدودة أن تأكل منها ، كذلك فأكره لحم أخيك وهو حي .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن) أى يأيها الذين آمنوا ابتعدوا عن كثير من الظن بالمؤمنين ، بأن تظنوا بهم سوء ما وجدتم إلى ذلك سبيلاً ، فى الحديث « إن الله حرم من المسلم دمه وعرضه ، وأن يظن به ظن السوء » . ولا يحرم سوء الظن إلا بمن شوهد منه السر والصلاح ، وأونست منه الأمانة ، أما من يجاهر بالفجور كمن يدخل إلى الخانات أو يصاحب الفوانى الفواجر فلا يحرم سوء الظن به .

أخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن سعيد بن المسيب قال : كتب إلى بعض إخوانى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغبلك ، ولا تظن بك بكلمة خرجت من امرئ مسلم شراً وأنت تجد لها فى الخير محملاً ، ومن عرض نفسه للثم فلا يلومن إلا نفسه ، ومن كتم سره كانت الخيرة فى يده ، وما كانت من عصى الله تعالى فىك بمثل أن تطيع الله فيه ، وعليك بإخوان الصدق فكن فى اكتسابهم ، فإنهم زينة فى الرضاء ، وعدة عند عظيم البلاء ، ولا تتهاون بالحلف فىهينك الله تعالى ، ولا تسألن عما لم يكن حتى يكون ، ولا تضع حديثك إلا عند من تشبهه ، وعليك بالصدق وإن قتلك ، واعتزل عدوك واحذر صديقك إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله ، وشاور فى أمرك الذين يخشون ربهم بالغيب .

ثم علل الأمر باجتناب كثير من الظن بقوله :

(إن بعض الظن إثم) أى إن ظن المؤمن بالمؤمن الشر إثم ، لأن الله قد نهاه عنه فعلة إثم . ونحو الآية قوله : « وَظَنَّتُمْ ظَنَّ السَّوِّءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا » .

قال ابن عباس في الآية : نهى الله المؤمن أن يظن بالمؤمن سوءا .
ثم لما أمرهم سبحانه باجتناب كثير من الظن نهامهم عن التجسس فقال :
(ولا تجسسوا) أى ولا يتتبع بعضكم عورة بعض ، ولا يبحث عن سرائره
يبتغى بذلك الظهور على عيوبه ، ولكن اقتنعوا بما ظهر لكم من أمره ، وبه فاحدوا
أو ذموا ، لا على ما تعلمون من الخفايا .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم
والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا
ولا تباغضوا ولا تداربوا وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق
ثلاثة أيام » التجسس : البحث عما يكتم عنك ، والتجسس : طلب الأخبار والبحث
عنها ، والتناجش : البيع على بيع غيرك (الزيادة عليه) والتدارب : الهجر والقطيعة .

وعن أبي بَرَزَةَ الأسلمى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا معشر من
آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإن من
اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه في عُقر بيته » .

وروى الطبرانى عن حارثة بن النعمان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم « ثلاث لازمات لأمتي : الطَّيْرَةُ والحسد وسوء الظن ، فقال رجل
وما يذهبهن يا رسول الله من هن فيه ؟ قال صلى الله عليه وسلم : إذا حسدت
فاستغفر الله ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض » .

وقال عبد الرحمن بن عوف : حرسنا ليلة مع عمر بن الخطاب بالمدينة ؛ إذ تبين
لناسراج في بيت بابه مخاف على قوم لهم أصوات مرتفعة وانط ، فقال عمر : هذا
بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شَرِب ، فما ترى ؟ قلت : أرى أنا قد
أتينا ما نهى الله عنه ، قال تعالى : « وَلَا تَجَسَّسُوا » وقد تجسسنا ، فانصرف
عمر وتركهم .

وقال أبو قلابة : حَدَّثَ عمر بن الخطاب أن أبا محجَّجٍ الثقفى يشرب الخمر مع أصحاب له فى بيته ، فانطلق عمر حتى دخل عليه ، فإذا ليس عنده إلا رجل ، فقال أبو محجج : إن هذا لايجل لك ، قد نهاك الله عن التجسس . فخرج عمر وتركه .

(ولا يقرب بعضكم بعضاً) أى ولا يذكر بعضكم بعضاً بما يكره فى غيبته ، والمراد بالذكر الذكر صريحاً أو إشارة أو نحو ذلك مما يؤدى مؤدى النطق ، لما فى ذلك من أذى المقتاب ، وإيغار الصدور وتفريق شمل الجماعات ، فهى النار تشتعل فلا تبقى ولا تذر ، والمراد بما يكره ما يكرهه فى دينه أو دنياه أو خلقه أو خلقه أو ماله أو ولده أو زوجته أو خادمه أو ملبسه أو غير ذلك مما يتعلق به .

قال الحسن : الغيبة ثلاثة أوجه كلها فى كتاب الله : الغيبة ، والإفك ، والبهتان .

(١) فأما الغيبة فهى أن تقول فى أخيك ما هو فيه .

(٢) وأما الإفك فأن تقول فيه ما بملك عنه .

(٣) وأما البهتان فأن تقول فيه ما ليس فيه .

ولا خلاف بين العلماء فى أن الغيبة من الكبائر وأن على من اغتاب أحداً التوبة إلى الله أو الاستغفار لمن اغتابه أو الاستحلال منه .

وعن شعبة قال : قال لى معاوية بن قرّة : لو مرّ بك رجل أقطع (مقطوع اليد) قتل هذا أقطع كان غيبة ، قال شعبة فذكرته لأبى إسحاق فقال صدق .

ثم ضرب سبحانه مثلاً للغيبة للتنفير والتحذير منها فقال :

(أحبب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه) أى أحبب أحدكم أن يأكل لحم أخيه بعد مماته ؟ فإذا كنتم لا تحبون ذلك بل تكرهونه لأن النفس تعافه ، فكذلك فاكروهوا أن تتأبوه فى حياته .

والخلاصة — إنكم كما تكرهون ذلك طبعاً فاكروهوا ذلك شرعاً لما فيه من

شديد العقوبة .

وقد شبهت بأكل اللحم لما فيها من تمزيق الأعراض المشابه لأكل اللحم وتمزيقه ، وقد جاء هذا على نهج العرب في كلامهم . قال الملقن الكندي :

فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجداً

وقد زادت الآية فجعلت اللحم لحم أتح ميت تصويراً له بصورة بشعة تستقذرها النفوس جميعاً .

سمع علي بن الحسين رضي الله عنهما رجلا يفتاب آخر فقال : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس ، وقيل لعمر بن عبيد : لقد وقع فيك فلان حتى رحمتك ، قال : إياه فارحموا .

وقال رجل للحسن البصري : بلغني أنك تغتابني ، فقال : لم يبلغ قدرك عندي أن أحكمك في حسناتي .

وقد ثبت في الصحيح من غير وجه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال حين خطب في حجة الوداع : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا » .

(واتقوا الله) أى فاكروهوا الغيبة واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه وزاقبوه واخشوه .

ثم علل هذا بقوله :

(إن الله تواب رحيم) أى إن الله يتوب على من تاب إليه عما فرط منه من الذنب ، رحيم به أن يعذبه بعد توبته .

ويجب على المقتاب أن يبادر إلى التوبة حين صدورها منه ، بأن يقلع عنها ويندم على ما فرط منه ، ويعزم عزمًا مؤكدًا على ألا يعود إلى مثل ما فرط منه .

ولا تحرم الغيبة إذا كانت لغرض صحيح شرعًا لا يتوصل إليه إلا بها ، وينحصر ذلك في ستة أمور :

- (١) التظلم ، فلن ظلم أن يشكولمن يظن أنه يقدر على إزالة ظلمه أو تخفيفه .
 (٢) الاستماعة على تمييز المنكر بذكره لمن يظن قدرته على إزالته .
 (٣) الاستفتاء فيجوز المستفتى أن يقول للمفتى : ظلمنى فلان بكذا فهل يجوز له ذلك ؟ .

(٤) تحذير المسلمين من الشر كجرح الشهود والرواة والمتصددين للإفتاء مع عدم أهليتهم لذلك ، وكان يشير وإن لم يُستشر على مرید التزوج أو مخالطة غيره فى أمر دينى أو دنيوى ويقتصر على ما يكفى ، فإن احتاج إلى ذكر عيب أو عيبين ذكر ذلك .

(٥) أن يجاهروا بالفسق كالدمنين على شرب الخمر وارتداد محال الفجور ، ويتباهوا بما يفعلون .

(٦) التعريف بقلب أو نحوه كالأعور والأعمش ونحو ذلك إذا لم تمكن المعرفة بغيره .

والأمة مجمعة على قبح الغيبة وعظم آثامها مع ولوع الناس بها حتى إن بعضهم يقولون : هى صابون القلوب ، وإن لها حلاوة كحلاوة التمر ، وضراوة كضراوة الخمر .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) .

شرح المفردات

من ذكر وأنثى : أى من آدم وحواء ، قال على كرم الله وجهه :
 الناس فى عالم التمثيل أ كفاء أبومُ آدم والأم حواء
 فإن يكن لهم فى أصلهم شرف يفاخرون به فالطين والماء

والشعوب : واحد هم شعب (بفتح الشين وسكون العين) وهو الحى العظيم المنتسب إلى أصل واحد كريمة ومضر ، والقبيلة دونه ك بكر من ربيعة وتميم من مضر . وحكى أبو عبيدة أن طبقات النسل التى عليها العرب سبع : الشعب ثم القبيلة ثم العارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة ثم العشيرة ، وكل واحد منها يدخل فيما قبله ، فالقبائل تحت الشعوب ، والعارى تحت القبائل ، والبطنون تحت العارى ، والأفخاذ تحت البطنون ، والفصائل تحت الأفخاذ ، والعشائر تحت الفصائل ، فخرمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة (بفتح العين وكسرها) وقصى بطن ، وعبد مناف فخذ وهاشم فصيلة ، والعباس عشيرة ، وسمى الشعب شعبا لتشعب القبائل منه كتشعب أغصان الشجرة .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه فيما سلف عن السخرية بالناس والازدراء بهم ، وعن المز والتنازير بالألقاب — ذكر هنا ما يؤكد النهى ويؤيد ذلك المنع ، فبين أن الناس جميعا من أب واحد وأم واحدة ، فكيف يسخر الأخ من أخيه ؟ إلى أنه تعالى جعلهم شعوبا وقبائل مختلفة ، ليحصل بينهم التعارف والتعاون في مصالحهم المختلفة ، ولا فضل لواحد على آخر إلا بالتقوى والصلاح وكال النفس ، لا بالأمر البدنيوية الزائلة .

ذكر أبو داود أن الآية نزلت في أبى هند وكان حجام النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بنى بياضة أن يزوجوا أباهند امرأة منهم فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : تزوج بناتنا موالينا ؟ فأنزل الله عز وجل : « إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ » الآية .

الإيضاح

(يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) أى إنا أشأنناكم جميعا من آدم وحواء، فكيف يسخر بعضكم من بعض، ويلمز بعضكم بعضا وأتم إخوة فى النسب، وبميد أن يعيب الأخ أخاه أو يلزمه أو ينبزه .

وعن أبى مُليكة قال : لما كان يوم فتح مكة رقى بلال فأذن على ظهر الكعبة فقال عتّاب بن أسيد بن أبى العيص : الحمد لله الذى قبض أبى حتى لا يرى هذا اليوم . وقال الحرث بن هشام : ما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا ، وقال سهيل ابن عمرو : إن يرد الله شيئا يغيره ، فأتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره بما قالوا ، فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا فأنزل الله الآية زجرا لهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والازدراء بالفقراء ، وبين أن الفضل بالتقوى .

وروى الطبرى قال : « خطب رسول الله بمبى فى وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال :

يأيها الناس ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لافضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأسود على أحر ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ألا هل بلغت ؟ قالوا نعم ، قال : فليبلغ الشاهد الغائب » .

وعن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم ، فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه ، وإمّا أتم بنو آدم ، وأحبكم إليه أتقاكم » .

(وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) أى للتعارف لا للتناكر ، واللمز والسخرية والغيبة تفضى إلى ذلك .

ثم ذكر سبب النهي عن التفاخر بالأنساب بقوله :

(إن أكرمكم عند الله أتقاكم) أى إن الأكرم عند الله الأرفع منزلة لديه عز وجل فى الآخرة والدنيا هو الأتقى ، فإن فاخرتم ففاخروا بالتقوى ، فمن رام نيل الدرجات العلا فعليه بها .

روى ابن عمر رضى الله عنهما « أن النبى صلى الله عليه وسلم خطب الناس يوم فتح مكة وهو على راحلته فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال : أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عيبَةَ الجاهلية وتعظمها بآبائها ، فالناس رجلان : رجل برئتقى كريم على الله ، ورجل فاجر شقى هين على الله تعالى ، إن الله عز وجل يقول : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ثم قال : أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم .

(إن الله عليم خبير) أى إن الله عليم بكم وبأعمالكم ، خبير بباطن أحوالكم ، فاجعلوا التقوى زادكم لدى معادكم .

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتَمَعُمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يُعْمِنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ،

قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ
 إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ
 بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)

شرح المفردات

الأعراب : سكان البادية ، آمناً : أى صدقنا بما جئت به من الشرائع وامثلنا
 ما أمرنا به ، فالإيمان هو التصديق بالقلب ، أسلمنا : أى اتقنا لك ودخلنا فى السلم
 وهو ضد الحرب : أى فلسنا حرباً للمؤمنين وعونا للمشركين ، لا يلتكم : أى لا ينقصكم ،
 يقال لاته يليته إذا نقصه ، حكى الأصمعى عن أم هشام السلولية « الحمد لله الذى
 لا يفات ولا يفلات ولا تُصمهُ الأصوات » ينون عليك : أى يذكرون ذلك ذكر
 من اصطنع لك صنيعاً ، وأسدى إليك نعمة .

المعنى الجملى

بعد أن حث الناس على التقوى — وتوخ من فى إيمانه ضعف من الأعراب
 الذين أظهروا الإسلام وقلوبهم وغلة ، لأنهم كانوا يريدون المغانم وعرض الدنيا ،
 إذ جاءوا فى سنة مجدية ، وكانوا يقولون لرسوله صلى الله عليه وسلم : جئناك بالانتقال
 والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، يريدون بذكر ذلك الصدقة والمن على النبى
 صلى الله عليه وسلم ، فأطلع الله نبيه على مكنون ضمائرهم ، وأنهم لم يؤمنوا بإيماناً
 حقيقياً ، وهو الذى وافق القلب فيه اللسان ، وأمرهم أن يقولوا : استسلمنا وخضعنا ،
 ثم أخبرهم بأنهم إن اتقوا الله حق تقاته وقام أجورهم كاملة غير منقوصة ، ثم بين أن
 من علامة الإيمان الكامل التضحية بالنفس والمال فى سبيل الله ببذلها فى تقوية دعائم
 الدين وإعلاء شأنه وخضد شوكة العدو بكل السبل الممكنة ، ثم أعقب هذا بأن الله

يعلم ما هم عليه من إيمان ضعيف أو قوى ؛ إذ لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، وأنه لا ينبغي للمؤمن أن يمتنّ على الرسول بإيمانه ، بل من حق الرسول أن يمتنّ عليه بأن وفقه إلى الهداية على يديه إن كان صادق الإيمان ، ثم ختم الآيات بالإخبار عن واسع علمه ، وإحاطته بمكنون سرّ خلقه في السموات والأرض لا يعزب عنه مثقال ذرة فيهما ، وهو البصير بما يعمل عباده من خير أو شر ، قال مجاهد : نزلت في أعراب من بنى أسد بن خزيمه (وكانوا يجاورون المدينة) قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأظهروا الشهادات ولم يكونوا مؤمنين حقاً .
وقال السُّدِّيّ : نزلت في الأعراب المذكورين في سورة الفتح : أعراب مزيّنة وجُهينة وأسلم وغفار والدليل وأشجع ، قالوا آمنا لياًمنوا على أنفسهم وأموالهم ، فلما استنفرُوا إلى المدينة تخلفوا .

الإيضاح

(قالت الأعراب آمنا) أى قالت الأعراب : صدقنا بالله ورسوله ونحن له مؤمنون فردّ الله عليهم مكذباً لهم مع عدم التصريح بذلك فقال :
(قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) أى قل لهم : إن الإيمان هو التصديق مع طمأنينة القلب والوثوق بالله ولم يحصل لكم بعد ، بدليل أنكم منتم على الرسول بترك مقاتلته ، ولكن قولوا : أئقنا لك ، واستسلمنا ولا ندخل معك في حرب ، ولا نكون عوناً لعدوك عليك .

وجاءت الآية على هذا الأسلوب ، ولم يقل لهم كذبتهم ، ولكن قولوا أسلمنا ، حملاً له عليه السلام على الأدب في التخاطب ليتأسى به أتباعه ، فيلينوا لمن يخاطبونهم في القول .

(ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) أى قولوا أسلمنا فحسب ، لأنه لم يدخل الإيمان

في قلوبكم بعدُ ، إذ لم يوافق القلب ما جرى به اللسان ، ولم يكن لشرائع الدين ولا آدابه أثر في أعمالكم ، فلم تتغذَّ بها أرواحكم ، ولم تصطبغ بهديها نفوسكم .

قال الزجاج : الإسلام إظهار الخضوع وقبول ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم وبذلك يحقن الدم ، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك هو الإيمان وصاحبه المؤمن اه .

(وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً) أى وإن تطيعوا الله ورسوله وتخلصوا له في العمل وتتركوا النفاق لا ينقص سبحانه من أجوركم شيئاً ، بل يضاعف ذلك أضعافاً كثيرة .

ولما كان الإنسان كثير المغفوات مهما اجتهد - ذكر أنه غفور لزلزلاته فقال :
(إن الله غفور رحيم) أى إنه ستار للمغفوات ، غفار لزلزلات من تاب وأناب وأخلص لربه ، رحيم به أن يعذبه بعد التوبة ، بل يزيد في إكرامه ، ويصفح عن آثامه .

ثم بين سبحانه حقيقة الإيمان بقوله :

(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) أى إنما المؤمنون حق الإيمان الذين صدقوا الله ورسوله ثم لم يشكوا ولم يترددوا بل ثبتوا على حال واحدة ، وبذلوا مهجهم ونفوس أموالهم في طاعة الله ورضوانه - أولئك هم الصادقون في قولهم : آمنا ، لا كععض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة ، وقد دخلوا الملة خوفاً من السيف ليحقنوا دماءهم ويحفظوا أموالهم .

ثم أكد ما سبق من قوله : لم تؤمنوا بقوله :

(قل أتعلمون الله بدينكم؟) أى قل لهم : أتخبرون الله بما في ضمائركم ، وما تنطوى عليه جوارحك من صادق الإيمان بقولكم : آمنا حقاً .

(والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض) فلا يخفى عليه مثقال ذرة فىهما .

وفى هذا تجهيل وتوبيخ لهم لا يخفى أمره .

(والله بكل شىء عليم) فاحذروا أن تقولوا خلاف ما يعلم من ضمائر صدوركم

فتنالكم عقوبته ، إذ لا يخفى عليه شىء .

(يؤمنون عليك أن أسلموا) أى يعدّون إسلامهم ومتابعتهم لك ونصرتهم إياك

منّة يطلبون منك أجرها ، فقد قالوا جئناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك

بنو فلان وبنو فلان .

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بما يقوله لهم عند المنّ عليه

بما يدعونهم من الإسلام فقال :

(قل لا تمنوا على إسلامكم) أى لا تعدوا إسلامكم الذى سميتموه إيماناً منة على ،

فإن الإسلام هو المنّة التى لا يطلب مؤمنها ثواباً لمن أنعم بها عليه ، ومن ثم قال :

(بل الله يمتنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين) أى بل الله هو الذى

يمن عليكم ، إذ أمركم بتوقيفه وهدايته للإيمان إن كنتم صادقين فى إيمانكم .

وفى هذا إيماء إلى أنهم كاذبون فى ادعائهم الإيمان .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للأَنْصار يوم حنين «يامعشر الأنصار ،

ألم آتكم ضلّالاً فهذا كم الله ؟ وعالة فأعنا كم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟

قالوا بلى ، الله ورسوله أمنّ وأفضل .»

والخلاصة — أن الله تعالى سمى ما كان منهم إسلاماً وخضوعاً لا إيماناً إظهاراً

لكذبهم فى قولهم آمنا ، ثم لما منوا على رسول الله بما كان منهم قال سبحانه لرسوله :

أيعتدّون عليك بما ليس جديراً أن يعتد به من إسلامهم الذى سموه إيماناً وليس

بذلك ؟ بل الله هو الذى يعتد عليهم بإيمانهم إن صدقوا ، فهو قد أمدهم بهديه وتوفيقه .

ثم أعاد الإخبار بعلمه بجميع الكائنات وبصره بأعمال المخلوقات فقال :

(إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون) أى إن الله يعلم ماغاب فيهما ، وهو بصير بسرکم وعلانیتکم ، لا يخفى عليه ما فى ضمائرکم .
 وفى ذلك رمز إلى أنهم كاذبون فى إيمانهم ، وإعلان للنبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه من المؤمنين بما فى أنفسهم .

خلاصة ما تضمنته السورة الكريمة

مباحث هذه السورة قسمان : قسم بين النبي صلى الله عليه وسلم وأمته ، وقسم يخص أمته وهو إما ترك للرذائل وإما تحلية بالفضائل . والقسم الأول هو :

(١) ألا يقضى المؤمنون فى أمر قبل أن يقضى الله ورسوله فيه .
 (٢) الهيبة والإجلال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألا تتجاوز أصواتهم صوته
 (٣) ألا يخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضهم بعضا ، بل يخاطبونه بالنبي والرسول .

(٤) إن الذين يحفضون أصواتهم عند رسول الله أولئك هم المتقون .
 (٥) إن من نادوه من وراء الحجرات كعُيُنة بن حصن ومن معه أكثرهم لا يعقلون .

(٦) ذمّ المنّ على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بالإيمان .
 والقسم الثانى هو :

(١) ألا نسمع كلام الفاسق حتى نتثبت منه وتظهر الحقيقة .
 (٢) إذا بغت إحدى طائفتين من المؤمنين على أخرى وجب قتال الباغية حتى تفتى إلى أمر الله .

(٣) حبيب الله الصلح بين المؤمنين .
 (٤) النهى عن السخرية والمز والتناز .
 (٥) النهى عن سوء الظن بالمسلم وعن تتبع العورات المستورة وعن القيبة والنميمة .
 (٦) الناس جميعا سواسية مخلوقون من ذكر وأنثى ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى .